



شيخ الإسلام ابن تيمية حياته ومناقبه[3-3]

في ذكر قوة قلبه وشجاعته :

كان - رضي الله عنه - من أشجع الناس وأقواهم قلباً ما رأيت أحداً أثبت جائساً منه ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه
كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم .

وأخبر غير واحد أن الشيخ - رضي الله عنه - كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب
ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة شجاعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد
والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة .

وكان إذا ركب الخيل يتحنثك ويحول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبـت الفرسان ويـكـرـتـكـيـراًـ أـكـيـ فيـ العـدـوـ منـ
كـثـيرـ مـنـ الـفـتـكـ بـهـمـ وـيـخـوـضـ فـيـهـمـ خـوـضـ رـجـلـ لـاـ يـخـافـ المـوـتـ .

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً من الشجاعة يعجز الواصل عن وصفها قالوا : " وقد كان السبب في تملك
المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره " .

ولما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك
بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبتهم في الشهادة ووعدهم على قيامهم
بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف فانتدب منهم رجال من وجوههم وكبارائهم وذوي الأحلام منهم فخرجوا معه إلى حضرة
السلطان غازان فلما رآهم السلطان قال : " من هؤلاء ؟ " فقيل لهم رؤساء دمشق فأذن لهم فحضرروا بين يديه فتقدم الشيخ -
رضي الله عنه - أولأً فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسهه وأخذ الشيخ في الكلام معه أولأً في
عكس رأيه عن تسلیط المخزول ملك الكرج على المسلمين وضمن له أموالاً وأخبره بحرمه دماء المسلمين وذكره ووعظه
فأجابه إلى ذلك طائعاً وحقنت بسببيه دماء المسلمين وحميت ذراريهم وصبن حريمهم .

وحدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا قدس الله روحه قال : " كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ فجعل - يعني

الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبته السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصحح لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه وأن السلطان من شدة ما أوقع الله ما في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ وقال ما معناه إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انتقاداً مني لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل فقال الشيخ للترجمان : قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت بما وفيت وجرت . وسأل إله إن أحببت أن أعمرك لك بلد آبائك حران وتنقل إليه ويكون برسنك فقال : لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم استبدل به غيره . فخرج من بين يديه مكرماً معززاً قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذلك نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه ما أراده وكان ذلك أيضاً سبباً لتخلص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حرمهم " .
وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش ..

وكان يقول : " لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه فان رجلاً شكي إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولادة فقال : لو صحت لم تخف أحداً - أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك - ".
وأخبرني من لا أتهمه أن الشيخ - رضي الله عنه - حين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد أحضره بين يديه قال فكان من جملة كلامه : " إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس وأن في نفسك أخذ الملك ؟ فلم يكترث به بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير من حضر : أنا أفعل ذلك ؟! والله إن ملكه وملك المغل لا يساوي عندي فلسين . فتبسم السلطان لذلك وأجا به في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق وإن الذي وشيء بك إلى كاذب . واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لواه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان " .

ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء وآكلو الدنيا بالدين متعاصدين متناصرين في عدوانه باذلين وسعهم بالسعي في الفتاك به متخرصين عليه بالكذب الصراح مختلقين عليه وناسين إلهي ما لم يقله ولم ينقوله ولم يوجد له به خط ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى ولا سمع منه في مجلس . أتراهم ما علموا أن الله سائلهم عن ذلك ومحاسبهم عليه ؟ أو ما سمعوا قول الله تعالى : { ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتقىان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } ؟

بلى والله ولكن غالب عليهم ما هم فيه من إيثار الدنيا على الآخرة والعمل للعاجلة دون الآجلة فلهذا حسدوه وبغضوه حتى أنه لم يحضر معه منهم أحد في عقد مجلس إلا وصنع الله له ونصره عليهم بما يظهره على لسانه من دحض حججهم الواهية وكشف مكيدتهم الاداهية للخاصة وال العامة .

في ذكر قوته في مرضاه الله وصبره على الشدائـد واحتـمالـه إـيـاهـا وثـبوـتـهـ علىـ الحـقـ إـلـىـ أـنـ تـوفـاهـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ ذـكـ صـابـراـ مـحـتسـبـاـ رـاضـيـاـ شـاكـراـ :

كان - رضي الله عنه - من أعظم أهل عصره قوة ومقاماً وثيوتاً على الحق وتقريراً لتحقيق توحيد الحق لا يصدّه عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل ولا يرجع عنه لحجة محتاج بل كان إذا وضح له الحق بعض عليه بالنواخذ ولا يلتفت إلى مباين معاند فاتفق غالب الناس على معاداته وجعل من عاداه قد تستروا باسم العلماء وهم أبلغ الناس في الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة .

وسبب عداوتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرئاسة وإقبال الخلق ورأوه قد رقاده الله إلى ذروة السنام من ذلك

بما أوقع له في قلوب الخاصة وال العامة من المواهب التي منحه بها وهم عنها بمعزل فنصبوا عداوته وامتلأت قلوبهم بمحاسدته وأرادوا ستر ذلك عن الناس حتى لا يفطن بهم فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه والوقوع فيه خصوصاً عند الأمراء والحكام وإظهارهم الإنكار عليه ما يفتني به من الحلال والحرام فشققاً قلوب الطغام بما إجترحوه من زور الكلام ونسوا أن لكل قول مقاماً أي مقام بين يدي أحكام الحكم يسأله هل قلته بحق أو بناءً فيجازي الحق دار السلام والمبطل دار الانتقام .. فبعضهم صبا إلى أقوالهم تقليداً وصار في حق هذا الإمام جباراً عنيداً أحس بذلك من العامة قوم قد أصبحوا للحكم عبيداً وتصوروا أن أخذهم بزمام حصول المال يكون شديداً فأصبحوا لهم مصدقين وفي طاعتهم مستبدين .

فاجتمع من هذا التركيب العتيد بحيث عاده أكثر السادات والعبيد كل بحسب غرضه الفاسد وهو مع ذلك كلما رأى تحاشدهم في مبaitته وتعاضدهم في مناقضته لا يزداد إلا للحق انتصاراً ولكتمة حجه وبراهينه إلا إظهارها .

ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنين وشهوراً ولم يولهم ذرها فراراً وقد قصد أعداؤه الفتاك به مراراً وأوسعوا حيلهم عليه إعلاناً وإسراها فجعل الله حفظه منهم له شعاراً وديثراً وقد ظنوا أن في حبسه مشينة فجعله الله له فضيلة وزينة وظهر له يوم موته ما لو رأاه واده أقر به عينيه فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجله أليسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حاله كونه حبس على غير جريمة ولا جريمة بل على قوة في الحق وعزيمة .

هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق وبهر بفنونه البصائر والأحداق وملاً بمحاسن مؤلفاته الصحف والأوراق كبتاً ورغماً للأعداء أهل البدع المضللة والأهواء وصنعاً عظيمة من رب السماء لعوائده لخاصة الأولياء أهل المحبة والولاء .

في أن الله جعله حجة ومعياراً للحق والباطل :

وهذا أمر قد اشتهر وظهر فإنه - رضي الله عنه - ليس له مصنف ولا نص في مسألة ولا فتوى إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلي والعلقي على غيره وتحرجى قوله الحق المحسن فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يتلاطم قلبه بها ويجزم بأنها الحق المبين وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد .

وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة لا يميله عندهما قول أحد كائناً من كان ولا يرافق في الأخذ بعلومهما أحداً ولا يخالف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سوطاً ولا سيفاً ولا يرجع عندهما لقول أحد وهو متمسك بالعروبة الوثيقى واليد الطولى وعامل بقوله تعالى : { فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } وبقوله تعالى : { وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله } .

وما سمعنا انه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما أشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسنة والإيمان في تتبع معانيهما والعمل بمقتضاهما ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلا وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسنة وتحرجى الأخذ بأقوامها من جهة المتنقول والمعقول .

ولما من الله عليه بذلك جعله حجة في عصره لأهله حتى إن أهل البلد البعيد عنه كانوا يرسلون إليه بالاستفباء عن وقائعهم ويعولون عليه في كشف ما التبس عليهم حكمه فيشيء غلتهم بأجوبته المسديدة ويبرهن على الحق من أقوال العلماء المقيدة حتى إذا وقف عليها كل محقق ذو بصيرة وتقوى من قد وفق لترك الهوى أذعن بقبولها وبيان له حق مدلولها وإن سمع عن أحد من أهل وقته مخالفته في حقه المشهور يكون من قد ظهر عليه لل خاصة ولل العامة فعل الشرور والاشتغال بترهات الغرور ومن أراد تحقيق ما ذكرته فليمعن النظر ببصيرته فإنه حينئذ لا يرى شاء موافقاً لهذا الإمام معترضاً بما منحه الله تعالى من صنوف الإلهام مثنياً عليه في كل محفل ومقام إلا وراءه من اتبع علماء بلده للكتاب والسنة وأشغلهم بطلب الآخرة وأرغبهم فيها وأبلغهم في الإعراض عنها وأهملهم لها ولا يرى عالماً مخالفًا له منحرفاً عنه ملتسباً بالشحنة له إلا وهو من أكبرهم نهمة في جمع الدنيا وأوسعهم حيلاً في تحصيلها وأكثرهم رباء وأطلبهم سمعة وأشهرهم عند

ذى اللب أحوالاً ردية وأشدhem على ذوى الحكم والظلم دهاءً ومكرًا وأبسطhem في الكذب لساناً .
وإن نظر إلى محبيه ومحضيه من العوام رأهم كما وصفت من اختلاف القبيلين الأولين ولقد أمعنت فكري ونظرى فيما ذكرته فرأيته كما وصفته لا والله ما أترج في أحد منها ومن ارتاب في ذلك فليعتبر هو بنفسه فإنه يراه كذلك إن أزاح عنه غطاء الهوى وما كان ذلك إلا لما علم الله سبحانه من حسن طوية هذا الإمام وإخلاص قصده وبذل وسعه في طلب مرضاه ربه ومتابعة سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

في ذكر وفاته وكثرة من صلى عليه وشيشه :

أخبرني غير واحد من كان حاضراً بدمشق حين وفاته - رضي الله عنه - قالوا إن الشيخ قدس الله روحه مرض أياماً يسيرة وكان إذ ذاك الكاتب شمس الدين الوزير بدمشق المحروسة فلما علم بمرضه استأنف في الدخول عليه لعيادته فأذن الشيخ له في ذلك فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حقه من تقصير أو غيره فأجابه الشيخ - رضي الله عنه - : " بأني قد أحالتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق " وقال ما معناه : " إني قد أحالت السلطان الملك الناصر من حبسه إباهي لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه والله يعلم أنه بخلافه وقد أحالت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله " .

قالوا ثم إن الشيخ - رضي الله عنه - يقي إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام وتوفي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبعين مئة (728 هـ) وهو على حاله مجاهداً في ذات الله تعالى صابراً محتسباً لم يجبن ولم يهلك ولم يضعف ولم يتتعتع بل كان - رضي الله عنه - إلى حين وفاته مشغلاً بالله عن جميع ما سواه .

قالوا فما هو إلا أن سمع الناس بمותו فلم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلوة عليه إلا حضر لذلك وتفرغ له حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معايشها حينئذ وحصل للناس بمصاحبه أمر شغفهم عن غالب أمورهم وأسبابهم وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام !.

قالوا ولم يختلف أحد من غالب الناس فيما اعلم إلا ثلاثة أنفس ! كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غالب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم !.

فغسل - رضي الله عنه - وকفن ثم أخرجت جنازته فما هو إلا أن رآها الناس فأكبوا عليها من كل جانب كلا منهم حتى خشي على النعش أن يحطم قبل وصوله إلى القبر فأحدق بها الأمراء والأجناد واجتمع الأتراك فمنعوا الناس من الزحام عليها خشية من سقوطها عليهم من اختناق بعضهم وجعلوا يردونهم عن الجنازة بكل ما يمكنهم وهو لا يزدادون إلا ازدحاماً وكثرة حتى أدخلت جامع بنى أمية المحروس ظناً منهم أنه يسع الناس فبقي كثير من الناس خارج الجامع وصلي عليه رضي الله عنه في الجامع ثم حمل على أيدي الكبار والأسراف ومن حصل له ذلك من جميع الناس إلى ظاهر دمشق ووضع بأرض فسحة متسعة الأطراف وصلى عليه الناس !.

قال أحدهم : " و كنت أنا قد صليت عليه في الجامع وكان لي مستشرف على المكان الذي صلى فيه عليه بظاهر دمشق فأحبيت أن أنظر إلى الناس وكثتهم فأشرفت عليهم حال الصلاة وجعلت انظر يميناً وشمالاً ولا أرى أواخرهم بل رأيت الناس قد طبقوا تلك الأرض كلها ! ."

واتفق جماعة من حضر حيئذ وشاهد الناس والمصلين عليه على أنهم يزيدون على خمسمائة ألف ! وقال العارفون بالنقل والتاريخ : " لم يسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - ".

ثم حمل بعد ذلك إلى قبره فوضع وقد جاء الكاتب شمس الدين الوزير ولم يكن حاضراً قبل ذلك فصلى عليه أيضاً ومن

معه من الأمراء والكبار ومن شاء الله من الناس .

ولم ير لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة وتعظيم الناس لها وتوقيرهم إياها وتفخيمهم أمر صاحبها وثنائهم عليه بما كان عليه من العلم والعمل والزهادة والعبادة والإعراض عن الدنيا والاشتغال بالآخرة والفقر والإيثار والكرم والمروءة والصبر والثبات والشجاعة والفراسة والإقدام والصدع بالحق والإغلاط على أعداء الله وأعداء رسوله والمنحرفين عن دينه والنصر لله ولرسوله ولدينه ولأهله والتواضع لأولياء الله والتزلل لهم والإكرام والإعزاز والاحترام لجنابهم وعدم الاكتزاث بالدنيا وزخرفها ونعيمها ولذاتها وشدة الرغبة في الآخر والمواظبة على طلبها حتى لتسمع ذلك ونحوه من الرجال والنساء والصبيان وكل منهم يثنى عليه بما يعلمه من ذلك .

ووفد في ذلك اليوم - رضي الله عنه - ثم جعل الناس يتناوبون قبره للصلوة عليه من القرى والأطراف والأماكن والبلاد مشاة وركبانا !

وما وصل خبر موته إلى بلد فيما نعلم إلا وصلي عليه في جميع جوامعه ومجامعه خصوصاً أرض مصر والشام والعراق وتبريز والبصرة وقرابها وغيرها .

وختمت له الختمات الكثيرة في الليالي والأيام في أماكن كثيرة لم يضبط عددها خصوصاً بدمشق المحروسة ومصر والعراق وتبريز والبصرة وغيرها حتى جعل كثير من الناس القراءة له ديدناً لهم أديرت الربعة الشريفة على الناس لقراءة القرآن المجيد وإهدائه له وظيفة معتادة .

وقد رثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة ولا يسع هذا المختصر لذكرها وذلك لما وجب للشيخ - رضي الله عنه - عليهم من الحق في إرشادهم إلى الحق والمنهج المستقيم بالأدلة الواضحة الجلية النقلية والعقلية خصوصاً في أصول الدين فإن الله انعم على الناس به في هذا الزمان الذي قد ظهرت فيه البدع فأميّنت السنن وصار أغلب أهله مجرّجين في البدع والحرام من حيث لا يشعرون ومن حيث لا يعلمون .

ومن الله عليهم بما وفقه له من إيضاح أصول الدين وتبين الحق المحسن والاعتقاد العدل وإنفراطه عن غيره من البدع والضلالات بأمور لم يسبق إلى مثيلها وإظهارها على لسانه بما أورده من ذلك في مؤلفاته ومصنفاته وقواعد المطابقة للحق وتقريراته وما أبرزه من الحجج والبراهين الظاهرة الموافقة للمعقول والمنقول مما لم يتمكن أحد من المتكلمين والمناظرين الإتيان بمثله وما أظهره وأورده من كثرة الدلائل العقلية بعد النقلية حتى قطع به جميع المبتدعين وكشف به عوار حجج الشاكين المشككين .

المصدر: رابطة أدباء الشام

المصادر: